الدين و االدولة في العقل الغربي

يمكن القول أن تاريخ الدين في الغرب قد عرف مخاضا عسيرا في علاقته بالصراع مع المفكرين و الفلاسفة و العلماء الذين كانت لهم صولات و جولات في التصدي لرجال الدين و نفوذهم المطلق في ميادين الحياة ، و أصبح من المعلوم به تاريخ النزاع الحاد بين سلطة الاكليروس (السلطة الدينية) و بين تيارات " التحرر" الذين رفضوا استغلال رجال الدين لمكانتهم قصد فرض الرأي الواحد و احتكار الحقيقة أفضت في آخر المطاف و تحت أنهار من الدماء إلى ما نجده الآن من فصل بين الدين و الدولة في مجالات تدبير المجتمع و قيادته .

اختلطت العديد من الآراء و التصورات حول الدين في علاقته بالدولة في الغرب بين من اعتقد بسموه على الدولة و بين من ذهب إلى التمييز بين وظيفة كل منهما و أيضا بين منكر لأي دور في الدين على مستوى تنظيم المجتمع ، ففي العصور الوسطى لدى الغرب شهدنا قيام دولة دينية تحكم بنظرية الحق أو التفويض الالهي كما شهدنا نمطا من الحكم في القرن 17 م شبيها له عرف ب (حق الملوك المقدس) كان قد نظَّر له المفكر الانجليزي (روبرت فيلمر Robert Filmer 1588-1653) لمذهب الملك الانجليزي (جيمس الأول) في تمثيل الملوك لله في الأرض فصاغ هذه النظرية في كتابه (المملكة الأبوية) أو (سلطة الملوك الطبيعية) و الذي نشر سنة 1680 م مصورا الملكية نظاما إلهيا مقدسا و الدولة امتدادا للأسرة ، و هذا المذهب هو الذي انتقده فيما بعد جون لوك (1632 م – 1704 م) في كتابه (رسالتان في الحكم) عام 1689 م (انظر كتاب سقوط الغلو العلماني دار الشروق ط 1995 ص 89)، هذا التصور الكهنوتي للدولة و الدين جعل المفكرين الغربيين و تحت التأثير بالفلسفة الأرسطية عبر الفلسفة الرشدية جعلهم ينتقدونه بشدة ليس من طرف المثقفين الأحرار فقط بل أيضا من طرف رجال الإصلاح الدينيين خصوصا و أن التاريخ يسجل لنا أبشع أصناف التعذيب و التنكيل بالعلماء من خلال محاكم التفتيش و ما صاحبها من أهوال تشيب لها نواصي الولدان ، فـ"لوثر" مثلا ميز بشكل واضح بين ما هو سماوي و ما هو أرضي و فصل بين السلطة الروحية و بين الزمنية و اعتبر أن الحياة السياسية غريبة عن روح الإنجيل و كذلك "كالفن" و غيرهم . و إذا كان البعض قد ذهب إلى ضرورة إصلاح السلطة الروحية في علاقتها بالدولة و تنظيمها عبر تحديد صلاحيات كل منهما، فإن ثمة آخرين قد آمنوا بضرورة إخضاع الدين للسياسة و التحكم به قصد الحيلولة دون حدوث تمزق في المجتمع الداخلي . فنجد *ميكيافلي* قد انطلق من مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) ليجعل من الدين وسيلة في يد الحاكم و الأمير يشغله في إظهار الاحترام حتى إذا خرق القوانين حفاظا على الوحدة الاجتماعية للدولة ، كما نجد *مونتيسيكيو* يحدد فوائد و أهمية الدين في علاقته بالسياسة من خلال دوره في الحفاظ على النظام الاجتماعي و الحد من أخطاء السياسة .

على أية حال ، استقر الرأي العام لدى مفكري الغرب على ضرورة أن تخضع الكنيسة للدولة و أن تلتزم السلطة الروحية بقوانين السلطة الزمنية كما أنه على الدولة أن لا تتدخل في شؤون الكنيسة كما ذهب إلى ذلك *توماس هوبز* و *روسو* و *اسبينوزا* و غيرهم . و مع ازدهار الحضارة الغربية من الناحية التقنية و الصناعية و أمام التحولات التي عرفها الغرب عموما على مختلف المستويات التمدن انتقلت العلاقة بين الدين و الساسة من آراء السياسيين بضرورة الفصل و التمييز إلى الحديث عن ضرورة تطوير الدين نفسه ليساير الحياة الاقتصادية و التقنية بحيث اعتقدوا أن الوضعية التعبدية الكنسية لا تتناسب مع ظروف التغيير الحاصل في البناء الاجتماعي فطالبوا بعلمنة الدين و إعطائه بعدا عقلانيا بعيدا عن الجذور الغيبية و التأملات الميتافيزيقية ، فذهب *سان سيمون* (1760 م – 1825 م) إلى اعتبار أن التطور العلمي يستدعي ضرورة تطوير النظام الديني ، و ذهب إلى أن المسيحية الحُقة هي التي تروم إلى تحقيق المساواة في الواقع لا في مملكة السماء ، و أيضا نجد *اوغست كونت* يتحدث عن الديانة الإنسانية بعد ما أصبحنا نعيش المرحلة الوضعية التي انتصر فيها العلم على التحليلات الغيبية و الفلسفية .

مِن تصور الإصلاح الديني لإشكالية العلاقة بين الدين و الدولة إلى القائلين بالفصل و التمييز إلى صناعة دين جديد يستجيب لتحديات الظروف الجديدة ثم إلى النزعة الراديكالية الماركسية حيث نقف على موقف تحرير الدولة من الدين و تحريره من المجتمع عبر تجفيف منابعه و اعتباره ألعوبة بيد الارستقراطيين يخادعون به الطبقة العاملة . هذه هي مُـجـمَـل مسارات العقل الغربي في علاقته بالدين ، فما هي مبررات هذا العداء الظاهر للدين و ما هي دوافع تهميش الدين في الغرب على مستوى التشريع و تدبير الصالح العام ؟ بتعبير آخر ما الذي جعل اللائكية ممكنة في الغرب ؟

في الواقع لا يمكن فهم ما آلت إليه نظرية الحكم السياسي المبنية على الفصل المطلق بين الدين و السياسة أو بتعبير أدق إلى رفض التفكير الديني و التبشير ب"العلمانية" كحل لمعضلة تداخل السلطة الزمنية و الروحية ، و لعلنا نجزم أن رفض المفكرين لتسييس الدين لم يكن يستهدف الدين في حد ذاته (المسيحية) بقدر ما كان يروم نحو الحد من التجاوزات السلبية لرجال الدين لوظيفتهم التعبدية ، يدل على ذلك في بداية الأمر محاولات رجال الإصلاح إزالة ما عُـلِّـق بالدين من الخرافات التي نسجها الباباوات عليه *كسبينوزا* و *لينتز* و *كالفن* و *لوثر* و غيرهم ، و هذا *سان سيمون* أحد رواد علم الاجتماع يقف في وجه البابا و كنيسته قائلا "إنني أتهم البابا و كنيسته بممارسة البدع و الهرطقات و أتهم رجال الدين بعدم اكتساب أية معلومات من شأنها أن تجعلهم قادرين على قيادة الأتباع المؤمنين في طريق خلاصهم " (منهاج البحث الاجتماعي بين الوضعية و المعيارية محمد محمد أمزيان ط 3 بيت الحكمة ص 14) ، لقد كان التفكير اللاهوتي غارقا في الخرافات فكان طبيعيا أن تجد رد فعل من أولئك الذين تشربوا من البحث العلمي و دراسة قوانين الطبيعة ، زاد من هذا العامل ما قامت به الكنيسة من اضطهاد للأسلوب العلمي في التفكير، فاحتكرت الحقيقة و حرمت كل أشكال التفكير خارج البابوية كما ارتكبت أبشع صنوف التعذيب في حق العلماء الذين ناقضوا أحكام رجال الدين . و يكفي للمفكر أن يقرأ شيئا عن محاكم التفتيش ليزداد يقينا بضرورة الحد من نفوذ الكنيسة. لقد كان التفكير اللاهوتي تفكيرا نصيا على الواقع المتغير فسادَ الجمود طوال فترة النفوذ الكنيسة ، و أيضا مما ساعد الحركة "العلمانية" على البروز التدخل القسري لسلطان الكنيسة في كل نواحي الحياة ففرضت النمط الديني على ميادين السياسة و الاجتماع و التعليم و الاقتصاد و أصبح الدين في عقل الإنسان الغربي فكرا تسلطيا يعيق حركة التغير و النهضة ، كان من الطبيعي أن يثور الأحرار على هذا النمط المتحجر بفعل ما أنتجه من انحطاط مطلق و تخلف رهيب استدعى بالضرورة الوقوف في وجهه و البحث عن بديل يؤسس لحياة جديدة تنسجم مع حركة المجتمع و الاكتشافات الجغرافية و تقوم على فتح الحريات و تقييد سلطات الملوك خصوصا و أن التحالف الإقطاعي و اللاهوتي قد أفرز مناخا من الإرهاب و التسلط و الاستبداد ، لقد كانت الصيغة الشهيرة للجماهير في الثورات الشعبية "أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس" كانت العبارة التي تلخص واقع الصراع بين العلماء الأحرار و بين رجال الدين الكهنوتيين (يُـتـبع)

العلمانية : بأي مفهوم ؟

يثور جدل حاد بين السياسيين و المثقفين حول "العلمانية" كمفهوم أنتجه الغرب بناء على ملابسات تاريخية و ظروف محددة ، و قد اتخذ هذا الصراع الفكري أشكالا متعددة من الحوارات و السجالات إلى المناظرات المباشرة بين أقطاب ينتمون إلى مدارس مختلفة ، فالناظر لحجم الكتب التي دارت حول "العلمانية" يدرك بجلاء أننا أمام مفهوم يمثل مفترق طرق بين النخب و الكتاب ، و يمكننا أن نذكر على سبيل الجرد بعض الكتب التي تناولت الموضوع تحليلا و نقدا ما يلي :

+ (العلمنة و الدين : الإسلام.المسيحية.الغرب) *محمد أركون* دار التاقي (عبارة عن مجموعة محاضرات)

+ (الإسلام و العلمانية وجها لوجه) *يوسف القرضاوي* مكتبة وهبة الكتاب عبارة عن استدراك بعد المناظر الشهيرة التي عقدت في دار الحكمة مقر نقابة الأطباء بالقاهرة بين العلماني الماركسي *فؤاد زكرياء* و *القرضاوي* و *محمد الغزالي* رحمه الله

+ (التطرف العلماني في مواجهة الإسلام) *القرضاوي* ط 1 أندلسية للنشر و التوزيع
+ (العلمانية في ميزان العقل) *عيد الدويهيس*
+ (العلمانية تحت المجهر) حوار بين العلماني *عزيز العظمة* و الإسلامي *عبد الوهاب المسيري* نشر في سلسلة حوارات لقرن جديد
+ (العلمانية في الإسلام) *إنعام أحمد قدوح* دار السيرة بيروت
+ (تحطيم الصنم العلماني) محمد *شاكر الشربي* دار البيارق
+ (تهافت العلمانية في الصحافة العربية) المستشار *سالم علي الهنساوي* دار الوفاء للطباعة
+ (العلمانية الجزئية) و (العلمانية الشاملة) *عبد الوهاب المسيري*
+ (الحوار الإسلامي العلماني) المستشار طارق البشري دار الشروق
+ (الدولة الإسلامية بين العلمانية و السلطة الدينية) محمد *عمارة* دار الشروق
+ (الشريعة الإسلامية و العلمانية الغربية) محمد *عمارة* دار الشروق
+ (سقوط الغلو العلماني) محمد *عمارة* دار الشروق رد على كتب محمد *سعيد العشماوي*
+ (ردود على أطروحات علمانية) *منير شفيق* منشورات الفرقان
+ (أزمة العقل العربي) مناظرة مباشرة بين الإسلامي محمد *عمارة* و العلماني *فؤاد زكرياء* نشرت في سلسلة (في التنوير الإسلامي)
+ (المناظرة حول الدولة الدينية و الدولة المدنية) محمد *الغزالي* و محمد *عمارة* و المستشار *الهضيبي* و محمد *خلف الله* و *فرج فودة*

هذه الكتب تمثل عينة بسيطة لما كتب في موضوع العلمانية في العالم الإسلامي. فإذا كان نظام فصل الدين عن الدولة لم تطرح مشكلة في الغرب باعتبار الدين المسيحي دين روحي لم يأتي بنظم تشريعية للمجتمع فإن الأمر قد اختلف تماما بالنسبة للإسلام كدين لا يستطيع أحدا التغاضي عن طبيعته الشمولية حتى باعتراف الغربيين أنفسهم في كتبهم . حتى نمسك الموضوع من جوانبه المختلفة سيكون علينا لزاما طرح خيار العلمانية كمفهوم في العالم الغربي و التساؤل حول المعاني و الأسس التي تقوم عليها في بناء النسق السياسي للدولة العلمانية و إذا ما أردنا الوصول إلى حكم عام نُقيِّم به صلاحية هذا النظام للعالم الإسلامي أخذا بمبدأ الأصوليين " تصور الشيء سابق على الحكم عليه " فكيف فهم العقل الغربي "العلمانية" و كيف تجلت في واقع التطبيق؟ (يُـتبـع)